



مجلة دراسات تاريخية

ISSN: 9741-2352

EISSN :6723-2600



أزمة حزب حركة انتصار الحريات الديمقراطية (حزب الشعب الجزائري سابقا) وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين غداة اندلاع الثورة التحريرية في الجزائر 1954 "مقاربة جديدة في الأسباب"
The Crisis Of The Movement For The Triumph Of Democratic Liberties And The Association Of Algerian Muslim Ulema The Day After The Outbreak Of The War Of The Independence In Algeria 1954 "A new approach to causes"

بركوكي ميلود

جامعة لونيبي علي – البليدة 2 (الجزائر)

Miloudbark22@gmail.com

المرسّل: بركوكي ميلود

النشر: 2022/10/06

القبول: 22-10-02

الارسال: 22-09-29

الملخص:

ما بين 1953 – 1954 تعرض تنظيمان سياسيان من الحركة الوطنية الجزائرية وهما: حزب حركة انتصار الحريات الديمقراطية الذي كان يقوده مصالي الحاج، وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي كان يقودها البشير الإبراهيمي إلى أزمة كبيرة أثرت كثيرا على معنويات الجزائريين. فالبعض يرجع أسبابها إلى خصومة على السلطة ومزاحمة الجيل الجديد للجيل القديم، والبعض الآخر يرجعها إلى غياب الحكمة في تسيير شؤون هذين التنظيمين. الكلمات الدالة: أزمة – خصومة – زعامة – حكمة.

Abstract

Between 1953-1954, tow political organizations of the Algerian National Movement: The Triumph Of Democratic Liberties, led by Messali El Hajj, and The Association Of Algerian Muslim Ulema, led by Bashir Al Ibrahim, suffered a major crisis that greatly affected the morale of algerians. Some attribute it to a rivalry over power and crowding out the new generation, while others attribute it to the lack of wisdom in running the affairs of these two organization.

Keywords .Crisis; Rivalry; Leadership; Wisdom.

مقدمة:

الأزمة في اللغة هي الشدة، والأزمة في حقيقتها هي عقبة كبيرة تصيب الأفراد والجماعات، فإن أصابت الأفراد حالت بينهم وبين الاستقرار الشخصي، وإن أصابت الجماعات حالت بينهم وبين الاستقرار الجماعي، وإن أصابت الأحزاب والدول حالت بينهم وبين النظام والسلطة. والأزمات السياسية قديمة قدم التاريخ وهي جزء من نسيج الحياة ولذلك يستحيل الوقوف على أسبابها الحقيقية مهما كان نوعها، لكن بالنظر إلى جوهرها فإنه دائما يكون سببها المطالبة بالحقوق سواء أكانت حقوقا للأفراد أو للأحزاب أو لفئات اجتماعية أو لأنصار أو لخصوم.

في هذه الدراسة سنحاول الوقوف على أزميتين وقعتا في تشكيلتين سياسيتين في الجزائر غداة اندلاع الثورة التحريرية وهما: أزمة حزب حركة انتصار الحريات الديمقراطية التي كان يقودها مصالي الحاج، وأزمة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بقيادة العلامة البشير الإبراهيمي. والهدف من هذه الدراسة ليس التّنبّش في الماضي أو الوقوف على الأسباب التي خاض فيها كثير من الباحثين والأكاديميين، بل تقديم مقاربة جديدة في هذه الأسباب من خلال طرح أسئلة موضوعية مغايرة للأفكار المسبقة التي اعتدنا سماعها وهي كالتالي:

هل أزمة حزب حركة انتصار الحريات الديمقراطية كانت حتمية بالنظر إلى تسارع الأحداث الداخلية والخارجية؟ أم أنها كانت مفتعلة؟
أما بالنسبة لأزمة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين هل تلك الأزمة كانت بسبب انحرافها عن مسارها، وأن الحكمة تركت مسارها للانتهازية السياسية؟ كما قال العلامة مالك بن نبي، أم أن الأمر لا يعدو أن يكون صراع الأجيال بسبب الخصومة على الزعامة كما قال المؤرخ أبو القاسم سعد الله؟

1. أزمة حزب حركة انتصار الحريات الديمقراطية:

الاتجاه الاستقلالي للحركة الوطنية الجزائرية اتجه أصيل ووطني نادى منذ بداية نشأته وبلا تردد باسترجاع السيادة الجزائرية ولا جرم في ذلك، لأنه كان يعلم بالأدلة التاريخية بخبث الإستعمار الفرنسي واستحالة تلبية مطالب الجزائريين بالمهادنة وأنصاف الحلول، وكان أول من وضع اللبنة الأولى لهذا الاتجاه هو الأمير خالد حفيد الأمير عبد القادر الجزائري الذي كان يخاطب الفرنسيين بقوله: "...نحن أبناء جنس ذي ماضي عظيم، لسنا من جنس حقير...عندما نعتقد بأن تاريخنا قد انتهى في عهدكم فهو في الواقع يبدأ معكم، كما بدأ تاريخكم في زمن أجدادكم الغولواز مع رومة..."¹.

وكان كثير التنويه بأعمال جدّه الأمير عبد القادر، فكان يقول مخاطبا الفرنسيين بما يلي: "إن أجدادنا قد أضرّموا حربا حامية الوطيس مدى 15 عاما وأزيد، ولم يكن حليفهم تقدير بطولاتهم وشجاعتهم وشهامتهم حق ثابت لا ينبغي أن ينكره المنتصرون علينا، كما لا ينبغي لي - أنا حفيد الأمير عبد القادر- أن أسكت عنه مثلما فعل كثير من المنتخبين..."².

وقد برز الأمير خالد كأعظم شخصية في الحركة الوطنية الجزائرية ما بين 1913-1919 وكانت الفضائل والمزايا التي تحلى بها من ثقافة واسعة، ومعرفة اللغة الفرنسية، ومن نسب شريف وشجاعة أهله لتزعم تلك الحركة. وقد وضع مطالب الشبان الجزائريين ولخصها في المطالبة بإزالة النظام الاستعماري وإلغاء جميع قوانين التمييز العنصري والتفرقة، وتمثيل الأهالي تمثيلا صادقا في جميع المجالس، وتشغيل اليد العاملة في فرنسا. وأثناء الحرب العالمية الأولى 1914-1918 تطوع في الجيش الفرنسي فأكسبه ذلك تجربة سياسية كبيرة ساهمت في صقل شخصيته. وفي عام 1915 أعفي من الخدمة العسكرية لإصابته بمرض السل الرئوي ونال التقاعد ليبدأ حياة سياسية ثانية³ من خلال تدويل القضية الجزائرية، حيث توجه برسالة للرئيس الأمريكي (وودرو ويلسون woodrow-wilson) يطلب منه تطبيق مبدأ تقرير مصير الأمم على الجزائر⁴. ثم نقل نشاطه السياسي إلى فرنسا ونشر فكرة تأسيس جمعية "نجم الشمال الإفريقي" في الأوساط العالمية المغربية بباريس سنتي 1924-1926، وتجسدت الفكرة في اجتماع 02 جويلية 1926 بتقلده الرئاسة الشرفية للجمعية. وبعدها سطع نجم الزعيم مصالي الحاج الذي عين أمينا عاما للجمعية وعمره آنذاك 28 سنة، وكان يملك جميع الخصال والمميزات لمواصلة النضال الذي بدأه الأمير خالد. دشن نشاطه السياسي بإلقاء المحاضرات الحماسية فتجلى سحر كلامه وقوة فصاحته وحقق نجاحا كبيرا في أوساط العمال الجزائريين على وجه الخصوص، وأصبح موجودا في جميع الاجتماعات في أحياء باريس. ثم ضاعف من اتصالاته بالجزائريين بين مختلف الطوائف المهنية وبالحركة العمالية، وبزعماء المستعمرات، من أجل ايصال صوت الشعوب المضطهدة، فشكل وفدا يتكون من حاج علي، والشاذلي المكي وسافرا إلى بروكسل (بلجيكا) لحضور مؤتمر الشعوب المضطهدة الذي انعقد في 10-15 فيفري 1927، وألقى هناك خطابا بليغا مدويا، والتقى بعدة شخصيات تاريخية أمثال: "هفوت بواني" "Houphouët-Boigny" (الكوت ديفوار) و "ليو بولدسيدر سانغور" "Léopold Sedar Sangor" من (السنغال)، و "أحمد سيكوتوري" "Ahmed- Sekoutouré" من (غينيا) و "هوشي منه" "Ho-chi Minh" من (الفيتنام) و "شكيب أرسلان" "Chekib Arselane" من (لبنان) وغيرهم⁵.

هذا النشاط السياسي والدبلوماسي المكثف لم يمر بسلام على أعين سلطات الاستعمار الفرنسي التي بادرت باتخاذ اجراء تعسفي ألا وهو حل جمعية نجم شمال افريقيا. لكن ذلك لم يثن من عزيمة مصالي الحاج ومناضلي الجمعية فأعادوا بناء تشكيل سياسي جديد أطلقوا عليه اسم "حزب الشعب الجزائري" وذلك في 11 مارس 1937⁶ وعين على رأسه الزعيم مصالي الحاج الذي لم يغير قيد أنملة من استراتيجية النضال ضد الاحتلال الفرنسي، فقامت السلطات الاستدمارية باعتقاله وحكمت عليه بسنتين سجن نافذة ثم حلت الحزب في 26 جويلية 1939⁷. وتزامن هذا الإجراء و اندلاع الحرب العالمية الثانية 1939-1945. وقبل هذا الحدث وجدت الدعاية الألمانية موطأ قدم في المغرب العربي وخاصة في الجزائر فاستغل

هذا الطرف الدولي بعض المناضلين في حزب الشعب وبدأوا ينشطون من أجل الاستعداد للقيام بعمل ثوري ما ضد المصالح الفرنسية.

وكانت أول نواة سرية تشكلت لهذا الغرض في سنة 1938 من خلال الاتصال الذي تم بين راجف بلقاسم وهو أحد مناضلي حزب الشعب الجزائري في فرنسا مع الألمان. ويذكر يوسف بن خدة بأن الألمان هم الذين اتصلوا ببعض مناضلي الحزب عن طريق المناضل حاج دحمان الذي كان يشتغل تاجرا في بلجيكا، وكان الهدف من هذا الاتصال هو التعرف على نوايا الوطنيين الجزائريين في حالة قيام حرب بين فرنسا وألمانيا، وحضر حاج دحمان إلى باريس للمشاركة في الجمعية العامة للحزب، وفتح راجف بلقاسم في الموضوع، وحدّث هذا الأخير محمد ربوح. وقد حافظ الثلاثة على هذا السر وقرروا ضرورة الالتقاء مع السلطات الألمانية في برلين⁸.

ويذكر راجف بأنه بعد رجوعهم مباشرة من برلين فوضوا المناضل عمارة رشيد لإخبار مصالي الحاج بما جرى لكن هذا الأخير فوض بومدين معروف بالقيام بهذه المهمة بدلا عنه. وكان مصالي الحاج في هذه الفترة مسجوناً بسجن الحراش ولما بلغ إلى مسامعه هذا الخبر اشتاط غضبا وقال لمعروف " بأن الشعب الجزائري غير مستعد بعد للقيام بالثورة، وأن العمل المسلح لم يختم بعد في أذهان الشعب ولا ينبغي الوثوق في الألمان لأنهم حسب قوله يريدون تأسيس مناطق للارتكاز عليها، ويريدون استغلالها لخدمة مصالحهم. وتساءل كيف يمكن لنا أن نثق في الألمان في الوقت الذي تحدّث فيه أدولف هتلر في كتابه كفاحي عن العرب باحتقار"⁹. ولم يكتف مصالي الحاج بهذا الرد فقط بل طلب من كامل المجموعة أن تقدم استقالتها من الحزب فوراً¹⁰.

والأسئلة التي تطرح نفسها حول هذه الحادثة هي:

هل كان مصالي الحاج على حق لما اعترض على مشروع هذه اللجنة؟ أم أن هذا المشروع فيه تهديد لمركزه داخل الحزب؟

وهل هذه الحادثة هي بداية لسلسلة طويلة من التوترات بين مصالي الحاج ومناضلي حزب الشعب (حركة انتصار الحريات الديمقراطية)؟

وفي الحقيقة مبادرة اللجنة الثورية لم تكن هي الأولى والأخيرة، فلقد رأى بعض المناضلين في حزب الشعب أن الحرب العالمية الثانية هي فرصة سانحة للقيام بعمل عسكري ضد الاستعمار الفرنسي لإخراجه من الجزائر مستغلين في ذلك إعلان ألمانيا الحرب ضد فرنسا، بل الأكثر من ذلك قيام ألمانيا باحتلال فرنسا عام 1940¹¹. ونتيجة لذلك تشكلت جماعة ثورية من عدد من الطلبة الجامعيين الجزائريين من بينهم شوقي مصطفى الذي يروي قصة هذا المشروع الذي بدأ مباشرة بعد سقوط مدينة باريس، حيث اجتمع في مسكنه في 18 جوان 1940 حوالي 14 طالباً جزائرياً، وبعد مناقشة طويلة تم الاتفاق على الإعداد للثورة وحددوا تاريخها في بداية أكتوبر 1940. وكان برنامج العمل الذي يستغرق فترة العطلة الصيفية

كلها يشتمل على العودة إلى المناطق الأصلية (الجزائر) والدعوة للثورة، وجمع الأسلحة وتجنيد الرجال القادرين على حملها، إلا أن هذا المشروع لم يكتب له النجاح لأن المناضل شوقي مصطفىاوي لما اتصل بالمناضل محمد الأمين دباغين الذي كان يدرس بكلية الطب بفرنسا أقنعه بأن الوقت لم يحن بعد لإعلان الثورة¹².

والسؤال الذي يطرح نفسه هو لماذا المناضل شوقي مصطفىاوي فضل القيام بعمل ثوري مع ثلة من الطلبة بدل عرضه على إطارات حزب الشعب لاستشارتهم؟ ولماذا فضل الاتصال بالمناضل محمد الأمين دباغين بدلا من مصالي الحاج؟ وهل كان شوقي مصطفىاوي يعلم مسبقا برفض مصالي لهذا المشروع؟ ومهما كانت الإجابة على هذه الأسئلة فالأعذار التي نلتمسها لشوقي مصطفىاوي في عدم إحاطة مصالي الحاج بهذا المشروع هو إقدام حكومة فيشي "Vichy" بقيادة المارشال بيتان pétain باعتقال مصالي الحاج وتقديمه للمحاكمة العسكرية بعد أن فشلت في استمالاته إلى جانبها، إذ اتصلت به مرتين الأولى في نوفمبر 1940 والثانية في مارس 1941 بهدف التفاهم معه والتعاون على قدم المساواة بين الفرنسيين والمسلمين بشرط أن يتخلى عن المطالبة ببرلمان جزائري وغيرها من مطالب الحزب الأساسية. وقد حكم عليه في 28 مارس 1941 بـ 16 سنة سجنًا مع الأشغال الشاقة. وتجدر الإشارة أن إذاعة برلين سبق لها وأن استنكرت عملية إلقاء القبض على مصالي الحاج و 28 مناضلا من حزب الشعب بتاريخ 04 أكتوبر 1939¹³.

وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية أعادت الحركة الوطنية الجزائرية تنظيم نفسها وغيّر مصالي الحاج اسم الحزب من حزب الشعب الجزائري إلى حركة انتصار الحريات الديمقراطية بتاريخ 02/11/1946 وبعدها تجدد الصراع بين مصالي وخصومه في الحزب بقيادة محمد الأمين دباغين حول المشاركة في الانتخابات لكن ما فتى أن تراجع وتثيرته. ففي 23 أكتوبر 1946 انعقد اجتماع اللجنة المركزية وتنازل التيار المعارض في الانتخابات بقيادة الأمين دباغين وكان الوحيد الذي واصل الاعتراض حتى النهاية هو حسين الأحول.

لكن هذا التعايش السلمي بين مصالي وخصومه لم يصمد كثيرا، ففي المؤتمر الأول للحزب الذي انعقد في 15 أكتوبر 1947 قرّر المؤتمر تأسيس تنظيم عسكري (المنظمة الخاصة) والتمهيد لوضع أسس عمل ثوري ضد المحتل الفرنسي. وهذا القرار صدم مصالي الحاج الذي صرّح قائلا: "إن الخروج من السرية للشروع في الكفاح على المستوى الشرعي يتطلب تحليلا في غاية الجدّة، والصراحة والنزاهة، لأن وسائل الكفاح وأساليب العمل ليست نفسها في المرحلتين، لكن هذا المؤتمر انشغل بشيء آخر، وما انشغل به عبارة عن منظرٍ لديماغوجية كبيرة ويسارية حمقاء، حيث لم يكن فيه للدراسة الموضوعية لمخطط عمل مطابق للمرحلة التي شرعنا فيها من خلال مشاركتنا في الانتخابات"¹⁴.

من خلال تصريح مصالي الحاج نستنتج أن أحداث الحرب العالمية الثانية ومجزرة 08 ماي 1945 تركت بصماتها ليس على الحزب فقط ولكن على الجزائريين عامة الذين انشطروا الى فريقين فريق داخل الحزب يؤمن بأن العمل الثوري هو الكفيل باسترجاع الحقوق والسيادة والحرية، وفريق بقيادة مصالي الحاج

يؤمن بسياسة التدرج والمراحل للوصول إلى العمل العسكري، وكان بالإمكان أن يطول التصدع داخل الحزب لكون كل فريق له مبرراته وحججه لولا تدخل القدر والأحداث الخارجية التي أعطت الحق لخصوم مصالي.

وأما القطرة التي أفاضت كأس تدمير خصوم مصالي الحاج هو غياب أي رد فعل أو تنديد من الحزب ألقت سلطات الاحتلال القبض على المناضلين حسين الأحول وحاج شرشالي في 3 أبريل 1948 خلال مهرجان أقيم بالبليدة، وحكم عليهما بالسجن لمدة 06 أشهر¹⁵.

وحدث آخر زاد من تفاقم الأزمة بين الفريقين المتخاصمين هو إقصاء المناضل والمعارض لسياسة مصالي الحاج محمد الأمين دباغين وذلك في 1949/12/02¹⁶. وكان هذا الإقصاء نتيجة لأزمة مفتعلة أطلق عليها الأزمة البربرية. وفي هذا الجو المتأزم سافر مصالي الحاج إلى مصر والتقى هناك زعيم المقاومة في الريف المغربي محمد عبد الكريم الخطابي وتحادث معه حول ثورته، واقتنع بما كان يؤمن به وهو لا بد من وحدة الكفاح المسلح في الشمال الأفريقي. وقطع زيارته في مصر وعاد إلى باريس (فرنسا) واستقبل هناك بعض أعضاء قيادة الحزب وهم: بن يوسف بن خدة، وأحمد بودة، ومزغنة، وتحدث معهم حول إرسال مناضلين لمصر لإجراء التدريب العسكري في القاهرة بالتعاون مع عبد الكريم الخطابي¹⁷، وهذا يدل على أن مصالي الحاج لم يكن ضد العمل العسكري كما يتهمة خصومه بل كان يرى بأنه عمل خاضع للمتطلبات السياسية وليس اعتمادا للعمل باعتباره مطلقا.

وأرسل كذلك المناضل موسى بولكروية إلى الجزائر لكي يسلم إلى بن يوسف بن خدة مشروعا لتكوين إطارات تحسبا لعمل مسلح. وحسب بن يوسف بن خدة طلب منه ألا يبوح بشيء عن ذلك لأعضاء اللجنة المركزية وفعلا لم تعلم هذه الأخيرة بشيء. ولعل السر في عدم إبلاغها بمشروعه الذي كان يحضر له أنه كان لا يثق في بعض أعضاء اللجنة المركزية الذين كانوا يعارضون كل مشاريعه لحجة عدم استشارتهم.

وكانت القطيعة النهائية بين مصالي الحاج وخصومه في 10 جويلية 1954 عندما استدعت اللجنة المركزية للحزب ندوة تحضيرية ووجهت في تقريرها توبيخا لطيفا لمصالي وحددت تاريخ 15 أوت 1954 لانعقادها. أما أنصار مصالي فذهبوا إلى بلجيكا حيث استدعى مصالي مؤتمرا آخر في هورنو وسجل التقرير الذي أرسله القطيعة النهائية مع المركزيين الذين بدورهم تبرؤوا منه ومن قيادته للحزب وفجروا الثورة في 1954/11/01، وكان يوجد أمامه حلان وهما: إما أن يسحب العمل الذي تم في 1 نوفمبر 1954 وإما أن يسافر إلى فرنسا ويلتحق بالقاهرة للقيام بعمل مشترك مع بن بلة وخيضر، فاختار حلا ثالثا فلم يستجب العمل الذي تم في أول نوفمبر واعتبره مرحلة أخيرة منطقية في كفاح الشعب الجزائري¹⁸.

2. أزمة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

إن الاتجاه الإصلاحى الدينى كان متجذراً فى المجتمع الجزائى وكان دعائه يعرفون باليقين أن الإسلام بالنسبة للشعب الجزائى يعنى الحصن الذى يعتصم به، والملاذ الذى يأوى إليه، والعقل الذى يحفظه من كل رجاء وهزات، والمدفع الأقوى فى معارك الحق والحريّة. وعرفت فرنسا الصليبية كل ذلك فجعلته نصب عينها، ووفرت للقضاء عليه كل ما تملك من قوى ووسائل وجهود¹⁹. وكان أول ما قامت به هو مدّ يدها للعقل الروحي العظيم وهو المسجد، وعمدت إلى إفساده بأبشع الوسائل ومختلف الطرق، وتشويه رسالته من خلال نشر الفساد الدينى على يد طائفة من الطرقيين الجهّال الذين أشاعوا البدع والخرافات بين عامة المسلمين. وارتبط عمل المستدمر بمحو الإسلام ومحاربة اللغة العربية، فاعتبرها غريبة فى بلادها وأصدر اللوائح والقوانين التى تنص على أن تعليمها وتعلمها يكون فى إطار كونها لغة أجنبية .

لقد ظنّ الاستدمار أنه نجح فى تذويب الشخصية الجزائرية ولكن العناية الإلهية كانت لهم بالمرصاد مصداقاً للحديث الشريف "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها" رواه أبى داود رقم (429) وصححه السخاوي فى المقاصد الحسنة (149) والألبانى فى السلسلة الصحيحة رقم (599) فقيّض الله تعالى علماء ربانيين أمثال عبد الحميد بن باديس، البشير الإبراهيمي، العربي التبسي، الطيب العقبي، محمد الأمين العمودي، مبارك الميلي، إبراهيم بيوض، المولود الحافظي، مولاي بن شريف، الطيب المهاجي، السعيد الياجري، حسن الطرابلسي، عبد القادر القاسمي، ومحمد الفضيل الورتلاني²⁰ وغيرهم من رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فقاموا بتأسيس جمعية إصلاحية سموها "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" وذلك بتاريخ 5 ماي 1931 التى قال فيها شيخ المؤرخين أبو القاسم سعد الله رحمة الله عليه ما يلي: "...إن الذين يعرفون الظروف التى ولدت فيها الثورة سيّما منذ 1945 يدركون أن هناك رجالا كانوا يعدون لها بطرق مختلفة وليس بطريق واحد، فمنهم من كان يعد لها بتوفير الأسلحة والتدريب العسكري²¹، ومنهم من كان يحضر لها بالمال والوسائل المادية، ومنهم من كان يخطط لها بالتكوين المعنوي وتربية النفوس على حب الوطن والجهاد فى سبيله، ولكنهم كانوا جميعا يعتقدون أن "دروسهم" لإعداد الثورة تكمل بعضها البعض، وأنه من الخطأ إعطاء الأولوية لهذا المدرس أو ذاك، لكن بعض المتحزبين المتأخرين لم يرقهم هذا التحليل، ورأوا من الوطنية عدم التسامح مع خصومهم الحزبيين واعتقدوا أن الثورة انما هي وليدة حزب ليست وليدة شعب، بل فى نظرهم وليدة جماعة صغيرة كانت تعمل فى الخفاء وليست وليدة قيادة وطنية مؤمنة كانت تعمل سرّاً وعلانية..."²².

وعلى الرغم من دور الجمعية فى نهضة المجتمع الجزائى والمحافظة على هويته الإسلامية ونشاطها فى الحركة الوطنية إلى غاية اندلاع الثورة فإن العلامة مالك بن نبي يرى بأنها انحرفت عن منهجها قائلاً: "على الرغم من قوة عبارات الإصلاحيين الجزائريين، فإن هذه الكلمات قد انحرفت أحيانا بكل أسف عن أهدافها لأسباب تضاد المنهج فلقد كان التّوم يُخدّرهم على أن ينشروا وعيهم وجهدهم باستمرار فكانت

النتيجة انحرافا ولا نتيجة لأن الحكمة قد تركت مكانها للانتهازية السياسية، ولكن مهما كان شأن جمعية العلماء إزاء ذلك الانحراف، ومهما كان ركونها أحيانا إلى التفكير غير المنهجي، فإنها لا تزال في طليعة النهضة الجزائرية الصحيحة ومن أقوى محرركاتها...²³ وحتى نوضح الفكرة أكثر فإن عتاب مالك بن نبي للجمعية كان بسبب حضورها ودورها في المؤتمر الإسلامي 1936 بحيث وصفه قائلا: "...بأي شيء رجعوا؟ ألم يرجعوا بإخفاق المؤتمر الجزائري بتشتيت جمعيتهم نفسها فلقد ساد الرأي الانتخابي وأصبح قائدا بدل من أن يكون مقودا، هكذا انقلبت الحركة الإصلاحية على عقمها وتمشي على قمة رأسها لا على قدميها، وربما كان عام 1936 التي بلغها روح الكفاح الإصلاحي والاجتماعي، هي نفسها القمة التي هبط منها الإصلاح إلى هاوية لا قرار لها..."²⁴.

لكن البعض لا يتفق مع مالك بن نبي في هذا الطرح ويعتبر بأن منهج جمعية العلماء المسلمين وعلمائها في النضال الوطني ارتكز على الاعتدال في المطالب والمواقف وتميز بعلاقة واسعة النطاق مع الأحزاب الوطنية والإسهام معها جنبا إلى جنب في نضالاتها السياسية، ونتيجة لذلك مسّها الضرر من الاستعمار الفرنسي على غرار الأحزاب، فتعرضت للسجن والنفي والاعتقال، والإقامة الجبرية.

والمتتبع لنشاط الجمعية السياسي يجد بأنه اتسم بالتريث، وعدم التهور والاستعجال، وأن الجمعية ماضية في عملها على خطى ثابتة ومحسوبة مراعية سنّة التدرج، فالعبرة في الأعمال بالخواتيم²⁵. وقد وصف الشاعر مفدي زكريا ثقة الشعب الجزائري في نهج الجمعية قائلا:

جمعية العلماء المسلمين ومن ☆ ☆ للمسلمين سواك اليوم منشود
خاب الرجاء في سواك اليوم فاضطلعي ☆ ☆ بالعبء مذ فرّ دجال رعديد
أمانة الشعب، شددت بعاتقكم ☆ ☆ فما لغيركم تلقى المقاليد
سيروا ولا تهنوا فالشعب يرقبكم ☆ ☆ وجاهدوا فلواء النصر معقود²⁶

ويكفي أن الجمعية كانت الحضرن الذي ترعرع فيه كل مناضلي الحركة الوطنية بطريقة مباشرة أو غير مباشرة وعندما انفجرت الثورة في 1954/11/01 سارعت الجمعية إلى تأييدها بإصدار رئيسها الغائب العلامة الشيخ البشير الإبراهيمي بيانا في القاهرة عبّر فيه عن موقفه المؤيد للثورة بتاريخ 1954/11/08 بعد أن أوفدت إليه الجمعية أحد أعضائها وهو الشيخ العباس بن الشيخ الحسين في أفريل 1955، حيث ساهم في التعريف بالقضية الجزائرية من خلال جولاته في عدة عواصم عربية ناهيك عن انخراط عدة مناضلين ومؤيدين للجمعية في جبهة التحرير الوطني²⁷.

أما المؤرخ أبو القاسم سعد الله فقد ذكر "بأن ما أصاب جمعية العلماء في هذه الفترة هو ما أصاب حزب الشعب الجزائري من خصومة على الزعامة ومزاحمة الجيل الجديد القديم وركود الهياكل والتوجيه العام، غير أن انقسام حزب الشعب أصبح معلنا بينما ظل ما أصاب جمعية العلماء في الخفاء، لأنه لم يصل إلى درجة الانقسام العلني. ولولا الثورة التي لم تسمح ظروفها بعودة البشير الإبراهيمي من مصر ولا

بعقد اجتماع عام لكان من الممكن أن يحدث للجمعية ما حدث لحزب الشعب. إن أعضاء الجمعية ولاسيما الجيل القديم منهم كانوا ما يزالون يشعرون بالولاء لبعضهم، بالتضامن الديني والعقائدي وبنوع من الحذر الأخلاقي إزاء ما يمكن أن يصيب الجمعية في علاقاتها مع الشعب الذي غالبته ينظر إليها نظرة احترام ديني وأخلاقي. ولم يكن الحال كذلك مع أعضاء حزب الشعب الذي كان العامل السياسي هو المحرك لهم بالدرجة الأولى في علاقاتهم مع بعضهم وفي علاقاتهم مع الشعب²⁸.

فالإبراهيمي كان متغيبا عن الجزائر منذ 1952 وكان من المفروض أنه ذهب إلى فرنسا والمشرق في جولة لصالح الجمعية ثم يعود لقيادتها لكنه لم يعد، فبدأت الاشاعات تحوم إلى حد أن صرح النائب الأول للجمعية وهو العربي التبسي لأبو القاسم سعد الله "بأن يؤخذ الإبراهيمي على بقائه في المشرق وإهماله لشؤون الجمعية"²⁹ أما العربي التبسي فرغم تدينه وإخلاصه لفكرة جمعية العلماء لم يكن محل تقدير كل أعضاء الجمعية، فقد كان شديد الغيرة على اختصاصاته، وشديد الحساسية لشخصه، ولم يكن يتمتع لا بأدب الإبراهيمي ولا بدبلوماسية محمد خير الدين، وكان له مع الجيل القديم للجمعية حرمة لإخلاصه وتفانيه وتدينه، لكن الجمعية قد دخلها جيل من الشبان العصريين فكان العربي التبسي لا يقنع أكثرهم لقيادتها. وكانوا يرون فيه "شيخًا" فوضويا في عمله مع شيء من الغفلة والدروشة في تصرفه. ذلك أن اتساع رقعة عمل الجمعية وتشابه القضايا التي أصبحت تعالجها سياسيا وتربويا واجتماعيا لم يعد يكفيها الرجل المخلص المتدين فقط.

وفي هذه الاثناء سافر العربي التبسي لأداء فريضة الحج والتجول في المشرق ولقاء الإبراهيمي، كما سافر لنفس الغرض أحمد بوشمال أحد أعضاء الجمعية العاملين الغير الظاهرين. وهكذا أصبح أربعة رجال من قادة الجمعية في المشرق وهم البشير الإبراهيمي وفضيل الورتلاني وأحمد بوشمال والعربي التبسي كل ذلك والجزائر تعيش ظروفًا صعبة. وبذلك خلا الجو لنائب الرئيس الثاني وهو محمد خير الدين لقيادة الجمعية، والظاهر أن خير الدين الذي لم يكن يصرح بنواياه وخططه قد شعر بأن الجمعية سيصلها الانقسام والفتل إذا لم يتداركها رجالها المخلصون بعملية حقن دم وإجراء تعديلات وإصلاحًا في نفسها وهيكلها. وأمام تغيب البشير الإبراهيمي الذي طال، وتغيب العربي التبسي الذي كان فرصة لتفادي المواجهة بينه وبين زميله من جهة وبين الجيل الجديد من أعضاء الجمعية من جهة أخرى قام محمد خير الدين في السنة المذكورة بما أسماه بعضهم عندئذ "بانقلاب" داخل الجمعية، وعلى خلاف عادته قام بجولات في أنحاء القطر يخطب ويعظ ويزور ويتفقد ويفتح المؤسسات، ثم توج كل ذلك بدعوة المجلس الإداري للجمعية للانعقاد أواخر سبتمبر في غياب الرئيس ونائبه³⁰. وفي غرة نوفمبر 1954 اندلعت الثورة المباركة التي أنقذت الشعب الجزائري من أزمة داخل الجمعية كان يمكن أن يكون ايلامها أكثر وقعا من أزمة حزب مصالي الحاج.

3. الخاتمة

كثيرا ما نردد: "إن اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية إلا أننا بعيدون كثيرا عن هذه المقولة، لأن في الحقيقة كل القضايا والعلاقات التي بيننا يشوبها الصراع والإقصاء، والتعالي، والتعسف، وعدم تقبل الاستماع للآخر، فلو وقفنا على هذا الجزء الذي تناولناه في هذه الدراسة من حيثيات أزمة حزب حركة انتصار الحريات الديمقراطية وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين لوجدنا أن سببها اختلاف الرأي وعدم تقبل الرأي الآخر وغياب الحكمة في معالجة المشكل في حينه، الأمر الذي أدى إلى تراكمات وشحناء وبغضاء فكانت في النهاية القطيعة التي انعكست سلبيًا على معنويات الشعب الجزائري، ولولا إيمان الشعب بالله تعالى بأنه هو ناصره على عدوه ان أجلا أم عاجلا لعصفت هذه الأزمات بمصيره وأطالت أمد الاستعمار الفرنسي في الجزائر. وصفوة القول: العبرة المستخلصة من هذه الدراسة أن الاختلاف بين الأفراد جزء لا يتجزأ من حياة الإنسان بل هو رحمة، فلولا تلك الأزمات لما كان الفرج في 1954/11/01. ورحم الله الشاعر التونسي أبو القاسم الشابي القائل:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة

فلا بد أن يستجيب القدر

4. الهوامش:

- ¹ محفوظ قداش، الأمير خالد، وثائق وشهادات لدراسة الحركة الوطنية الجزائرية، ديوان المطبوعات الجامعية، المؤسسة الوطنية للطباعة، الجزائر، 1986، ص 31.
- ² المصدر نفسه، ص 19.
- ³ المصدر نفسه، ص 31.
- ⁴ عبد الحميد زوزو، الهجرة الجزائرية ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية 1919-1939، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1985، ص 55-58.
- ⁵ بنيامين ستورا، مصالي الحاج 1898-1974 رائد الوطنية الجزائرية، ترجمة صادق عماري ومصطفى ماضي، دار القصبة للنشر والتوزيع، الجزائر، 1998، ص 57-59.
- ⁶ عبد الحميد زوزو، مرجع سابق، ص 70.
- ⁷ بنيامين ستورا، مرجع سابق، ص 182.
- ⁸ إبراهيم لونيسي، تجدد فكرة العمل المسلح في الجزائر ابان الحرب العالمية الثانية 1939-1945، مجلة المصادر، الجزائر، العدد الرابع، 2001، ص 89.
- ⁹ نفس المصدر، ص 90.
- ¹⁰ نفس المصدر، ص 90.
- ¹¹ نفس المصدر، ص 79.
- ¹² نفس المصدر، ص 85-86.
- ¹³ نفس المصدر، ص 82.
- ¹⁴ بنيامين ستورا، مرجع سابق، ص 200.
- ¹⁵ نفس المصدر، ص 201.
- ¹⁶ نفس المصدر، ص 201.
- ¹⁷ نفس المصدر، ص 203.

- ¹⁸ نفس المصدر، ص 227.
- ¹⁹ محمد الصالح الصديق، كيف ننسى وهذه جرائمهم؟، دار هومة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2005، ص 74.
- ²⁰ الشيخ محمد خير الدين، مذكرات، المؤسسة الوطنية للكتاب وطبع ديوان المطبوعات الجامعية، بدون سنة النشر، ج 2، ص 08-09.
- ²¹ محمد البشير الابراهيمي، في قلب المعركة، دار الأمة للنشر والتوزيع، 2007، الجزائر: ص 7.
- ²² المصدر نفسه، ص 8.
- ²³ مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة كامل مسقاوي، عبد الحميد الصبور شاهين، دار الفكر دمشق، سوريا، طبعة 11، 2008، ص 28.
- ²⁴ المصدر نفسه، ص 29.
- ²⁵ الطيب بوسعد، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية والثورة التحريرية المباركة (1931-1962) مجلة الصراط، كلية العلوم الإسلامية للبحوث والدراسات الإسلامية المقارنة، العدد 16، جانفي 2008، ص 155.
- ²⁶ المصدر نفسه، ص 167.
- ²⁷ المصدر نفسه، ص 170.
- ²⁸ أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج 2، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر 2007، ص 65.
- ²⁹ المصدر نفسه، ص 66.
- ³⁰ المصدر نفسه، ص 67.